الأسرار

لكل إنسان سر خاص لا يريد افتضاحه، ولا يريد أن يعرف به أحد، كما أن من الأسرار من لا يُريد صاحبها أن يثيرها في نفسه أو يعترف بها، وهو إذا تذكرها اشمأزت له نفسه، ويُبالغ الكثير في الاحتفاظ بأسرارهم، وهذا ما يُفسر لنا السبب الذي من أجله يتفانى العصبيون الذين اضطربت نفسياتهم، يتفانون في مُحاولة إخفاء أمراضهم، فهم يعتبروها سرا خاصا، فالمرأة التي بها هوس في اغتسال يديها كل دقائق تُبالغ في إخفاء أمر هذا الهوس عن الناس، وإذا تنبه البعض إلى هذا التصرف راحت تُبالغ في إخفاء السر مُعتذرة بكل الأسباب التي تُبرر تصرفاتها، فتدعي مثلًا بأن النظافة تُحتم عليها اغتسال يديها كل لحظة، وهي إذا تورطت أمام الناس وخافت اكتشاف سرها عمدت إلى تعفير يديها بالتراب، مثلًا كي تتمكن من اغتسالهم، وبذلك تخرج من المأزق الأدبي.

ويُبالغ العصبيون في الاحتفاظ بأسرارهم، اللهم غير الخوف أو الحاجة فهما اللذان يرغمان المريض للإفصاح عن مكنونات قلبه، وفي كل الأمراض العصبية يقبع سر غامض، ويبعث الاضطراب في قلب المريض، والمُصيبة في هذه الأسرار أنها قد تكون غائبة عنه، فيُبالغ في الاحتفاظ بالسر، ومن ثم يتخبط المريض في أحزانه دون أن يدرك هذا السر الذي يلعب دوره في إثارة القلق والاضطراب.

والمريض الذي يشعر بالاضطراب ويذهب إلى طبيبه النفسي ليُعالج حالته، إذا تمكن ذلك الطبيب من كشف الغطاء عن السر الذي يشيع الاضطراب، سرعان ما ينتاب المريض الذعر ويفر دون أن يترك للنفساني فرصة إتمام استخراج هذا السر.

وهذا ما يُفسر لي حضور كثيرين من المرضى يشكون بعض الأحزان النفسية مُتحمسين للعلاج فيُداومون على الحضور فإذا تمكنت أن أصل بهم إلى موضع الداء ولوا مُسرعين؛ فالمريض الذي يريد الشفاء يحدوه ميل التخلص من دائه، فيُحاول أن يزيح الأعباء الثقيلة التي على كتفه إلى طبيبه المُعالج، ولكن رغبته في الاحتفاظ بسره والنضال دون الإفصاح يحول دون ما يريد فتصدم الرغبة في الشيء مع الزهد فيه مما يُؤدي إلى ازدياد حالته سوءًا، فإذا تمكن الطبيب المُعالج من مُساعدة مريضه في الإفصاح عن سره، وتمكن من أن يجعل النزعات القابعة في القاع أن تطفو على السطح، فقد قطع الشوط الكبير في سبيل العلاج.

ولقد مرت علي قصص مليئة بالمخاوف والأحزان ومن ضمن هذه القصص قصة امرأة زوجة أحد الأطباء؛ فقد جاءت إلى مكتبي وراحت تُحدثني عن همومها وقالت بأنها ترددت مرات عديدة قبل تصميم رأيها على المجيء ولكن ظروفي في ذلك الحين لم تسمح لي بفحص حالتها لكثرة مرضاي حينذاك، فاقترحت عليها أن تذهب إلى أحد الأطباء الآخرين أو تنتظر بضع أسابيع أُخرى حتى يُمكن أن أتفرغ لها. ولكنها قاطعتني قائلة:

«أنا لا يُمكن أن أنتظر أكثر مما انتظرت، وكفاني ستة أشهر مرت بي وأنا أُراود نفسي المجيء لك، وبعد ذلك أراك تطردني من دارك».

فقلت أنا لم أطردك.. معاذ الله، ولكني أعرض عليك ما يُمكن لي أن أُساعدك به، وفي الوقت نفسه لا أرى غضاضة في اقتراحي عليك أن تذهبي إلى بعض الأطباء الآخرين، وصديقي المُعالج الذي اقترح عليك أن تذهبي إليه لا يقل عني كفاءة إن لم يكن يفقني في فنه.

- «أنا قد حضرت إليك.. وأريد منك أنت، وأنت بالذات أن تُعالجني، وليس في طاقتي أبدًا الانتظار أكثر مما أنتظر، وإذا لم تُعالجني من أمراضي فأقتل نفسي».

- «إنك تطلبين المستحيل.. وهذا تهديد منك لشخصي، أنتِ في أول الأمر ترددت ستة أشهر وانتظرت كثيرًا، ثم بعد انقضاء تلك المُدة الطويلة تأتين لي وتريدين مني أن أشفيكِ في هذه اللحظة! ماذا لو انتظرتِ قليلًا؟!

وراحت المُناقشة تدور في جو شبه عاصف من الرجاء والتمني، فما أدهشني إلا أن أرى المرأة تركع على رُكبتيها في رجاء وبُكاء، وتمد لي يدها في توسل وذلة وتنتحب في مرارة وحزن وتُهدد بالانتحار. وأخيرًا اضطررت لأن أترك لها الحجرة تعمل فيها ما يروق لها، فقد كان مرضاي الآخرين ينتظرون دورهم بفارغ من الصبر والرجاء.

وقد يتهمني البعض بالقسوة، ولكن ما حيلتي أمام إصرار المرأة على البقاء في هذه الحجرة لتضيع وقتي ووقت المرضى الآخرين مما لم يكن لي حيلة غير أن أتركها وشأنها، وكان بالحجرة المُجاورة مريضة أُخرى فرُحت أفحص أمرها ورحت أقضي معها وقتًا.

وبينما أنا كذلك دخلت علي السكرتيرة في جزع وخوف لتقول لي بأن السيدة التي كانت معي قد خرجت من مكتبي وتسلقت ظهر العمارة حتى وصلت إلى الدور السابع ووقفت على حافة الجدار وراحت تُهدد بالانتحار، فتضايقت لأن تهديدها يشوبه الإخراج المسرحي، فقد تعمدت في تمثيلياتها حتى جذبت إليها أنظار بقية سُكان العمارة.

ولم أجد بُدًا غير الاتصال بزوجها الذي جاء على عجل وراح يُحاول معها وسائله المُختلفة حتى تمكن من أن يأخذها معه بسلام.

وأنتقل إلى تجربة أُخرى تشبه هذا اللون الباهت في هذه القصة الحزينة؛ فقد جاءني شاب في التاسعة والعشرين يحمل معه توصية من أحد أصدقائي، أما مرض هذا الشاب فهو انهيار عصبي قاسى ويلاته مُنذ الطفولة، ولسوء الحظ أيضًا لم يسمح وقتي في ذلك الحين لقبول أي مريض فقد كنت مشغولًا جدًا، فاعتذرت له ولكنه لم يقبل الاعتذار، فاقترحت عليه أن يذهب إلى بعض الأطباء الآخرين في فيينا، ولكنه رفض وأصر على أن آخذ قضيته إلى جانبي ولكني ازددت إصرارًا في الرفض، فخرج من عندي وهو مُكتئب حزين.

ثم راح يُلاحقني بخطاباته المُتتابعة التي تنم عن الرجاء الشديد لشخصي في أن أدرس موضوعه | ، وفي مرة حمل لي البريد خطاب تهديد منه، وفي ذلك الخطاب راح يُحدثني عن رغبته في الانتحار نتيجة رفض العلاج وتحميلي مسئولية وفاته، وطبعًا لم يكن لهذا التهديد أي أثر في نفسي فازددت إصرارًا في رفضي العلاج.

إن هذه القصص التي تحمل بين جوانبها الإملاء والتهديد قصصًا خالية من المعنى ويجب ألا نقيم وزنًا لتهديدات المرضى، فالتهديد بالموت هو نفسه المرض وهو ليس بالشيء الجديد في حياة المريض. وعلى العموم أضع أمام القارئ قصة هذا الرجل ليقرأ ما كتبه.

قال «ابتدأت الأزمة النفسية عندما حدث لي أن أن تعرفت بأحد اليهود، ففي ذلك الحين انتابني شعور من الخوف الشديد فأحسست كأن العالم سوف يحترق وسوف تُدمر المدنية والحياة وسوف يموت أهلي وتهلك أُختي ووالدي. أما كيف جاء ذلك الخاطر إلي ذهني فلا أعرف له سببًا، وفي الوقت نفسه انتابني خوف آخر، فقد شعرت بخاطر يُناديني من أعماقي لأن استل سكينًا وأقتل به هذا اليهودي، فقد تكون معرفته ولعنته هي التي أثارت تلك الخواطر في ذهني, فليس أمامي إلا التخلص منه لأتخلص من أوهامي وأحزاني، وكانت الأسابيع الأخيرة مسرحًا للاضطراب النفسي العنيف، فقد اشتدت بي المخاوف والوساوس».

ثم راح يتحدث عن تدينه العميق وإيمانه بالله، كما راح يتحدث أيضًا عن مرض فقدان الذاكرة الذي ينتابه من حين لآخر، كما راح يتحدث كذلك عن فشله في الحياة العامة وعجزه عن الحصول على لقمة العيش بسهولة لأن وساوسه تُلاحقه باستمرار، وتحول دون استقراره في أي مهنة يمتهنها.

قال الرجل «وينتابني صراع شديد لأن ألقي بما في يدي في وجه مدير العمل الذي أشتغل عنده».

والآن لنُسلط ضوءًا على نفسية هذا الرجل لنجد أن الشعور الإجرامي الذي ينتاب هذا المريض لأن يخدش العالم ويجرح شعور الناس، وهو نفس الشعور الذي ينتابه عندما يأتي إلى عيادتي ويهددني بقتل نفسه، فالشعور الثائر في نفسه دائمًا هو أن يُسبب ضررًا لجميع الناس سواء في ذلك الذين يقدمون له معروفًا أو يُقدمون له شرًا.

وهذا المريض كسولًا لا يميل إلى العمل ويتخذ من أمراضه ووساوسه وسيلة للبطالة والخمول، وشعوره بأن يلقي بما في يده في وجه الذي أمامه إنما هو شعور الناقم على الناس جميعًا، وعلي الذين يُمهدون له الحياة، ويبحثون له على وسيلة الحصول علي لقمة العيش؛ فأشد الناس عداوة له هو ذلك الرجل الذي يطعمه لأن رغبته تنطوي علي كسل وخمول؛ فإذا أنت هيأت له سُبل العيش فكأنك تُهيئ له شيئًا لا يريده، ومن ثم أحس بكراهية عميقة لذلك الشخص الذي يرأسه، وظهرت هذه الكراهية فيما

يبدو منه من انفعال نفسي ورغبة في الاعتداء، أما اشتعال الحرائق التي يتحدث عنها فمرده أحداث الطفولة التي ولت، فهو شقي في حياته تُطارده التكاليف فبات بلعن الحياة التي يعيش فيها لأنها لم تقدر على تهيئة السعادة له وبات راغبًا في أن يعيش في ظلام.

والحرائق رمز للطفولة الأولى فولادة الابن يصحبها صراخ وضجيج، وإضاءة الشموع. فالحرائق تُمثل فكرة العودة إلي الطفولة، أعني فكرة التخلص من مسئوليات الحياة وجمودها.

إن هُناك الكثير من المسائل التي تثور في عقل الإنسان أشبه بالطلاسم، ولكنك متى تمكنت من فك هذه الطلاسم فقد تمكنت من فك الرموز التي تقف أمام النفس البشرية لتحول دون سيرها في الطريق السليم.